

كورونا والتكشف والتوطين تضغط على الخليج



هذا هو العامل النفسي السلبي السائد والذي انعكس على حركة الأعمال اليوم في الخليج ويعطي الإحساس بان الأزمة كبيرة. والفارق كبير، ليس في سعر النفط فقط، فدول الخليج كانت ثرية جدا عندما كان النفط بعشرين دولارا، ولا يزال سعر 40 دولارا الحالي مجزيا مع رخص كلفة الإنتاج. الفارق في مشهد أزمة تتداخل.

هل يوجد حل وسط الآن يواجه تداعيات كورونا والتكشف والتوطين مجتمعاً؟ هل يوجد إجراء يهدئ من روع المواطن والوافد على حد سواء؟ لا انتظار زيادة التكشف هو الحل ولا انتظار معجزة صعود أسعار النفط هو الحل ولا تشجيع الوافدين على المغادرة هو الحل. إن الأمر يحتاج إلى مراجعة شاملة وهادئة في بلاد تترك أنها ستبقى ثرية وأنه من المهم مواجهة العامل النفسي قبل اتخاذ الإجراءات الاقتصادية.

ثم جاء التوطين. بدأت المباني تفرغ أو يضطر أصحابها، أمام ضغط تسديد القروض، إلى تخفيض الإيجارات. بقيت الحسبة مقبولة طالما أن العائد يقدر أقساط القرض. لكن الضربة الثانية جاءت مع كورونا. انخفضت العائدات إلى ما يعادل نصف القرض أو حتى أقل لأن الساكنين إما رحلوا أو يعجزون عن دفع الإيجارات كلها أو جزء منها. صار العائد أقل بكثير من استحقاقات القرض. وصار على المواطن الموظف أن يقطع من راتبه ليعوض الفرق. إلى اليوم، يبدو من الصعب الحكم على ما سيحدث من مشاكل لأن الدول صارمة في منع البنوك من الإعانة في الضغط على الذين يعانون من عسرة مالية في السداد. بعض العواصم التي بالغت في بناء المكاتب قبل 10 سنوات، وبدأت في تحويل المباني التجارية إلى شقق سكنية، توقفت الآن عن الاستمرار بهذا المنحى، فالوافد إما غادر أو لا يتمكن من الدفع. مبان كثيرة فارغة، تجارية أو سكنية.

يمكن أن تستمر في دفع الرواتب على المدى المنظور لهؤلاء الموظفين، لكن الكثير من الموظفين في طريقهم إلى مشاكل مالية عويصة كان ارتفاع الرواتب جزءا كبيرا من أسبابها. المواطن الخليجي تاجر (أو رجل أعمال بالمصطلح الحديث) بطبعه. عندما وفرت له الدولة راتبا مرتفعا، وأعطته منحة بناء وقطعة أرض ورعاية صحية ومدارس مجانية، وجد وفرة من المال بين يديه. كان هناك الملايين من الوافدين ممن يحتاجون إلى السكن ولن يكون بوسعهم التملك في معظم دول الخليج. وفر المواطن قليلا وبدأ مشروعه العقاري بدعم من تمويل مصرفي سهل وميسر. أي مصرف يرى ريوفا راتبه 30 ألف دولار شهريا، سيكون مستعدا لمنحه التسهيلات والقروض. انتشر البناء السكني والتجاري، فالوافدون يسكنون ويعيشون ويأكلون ويتنزهون. كانت المعاملة رابحة. مبنى تزايد قيمته، وعائد من الإيجارات يغطي فائدة القرض ويزيد. الراتب في الجيب.

أحد لديه تقدير أولي عن موعد الخروج من أكبر أزمة ركود اقتصادي في التاريخ الحديث. ولا أحد لديه قراءة لما سنؤول إليه النتائج على المدى المتوسط والبعيد.

انعكست هذه المعطيات على المزاج العام في الخليج. بدأت إجراءات التكشف وتقلصت الميزانيات وصمت الحديث عن تنوع مصادر الدخل. المحرك الاقتصادي للمنطقة هو العائد النفطي والإنفاق الحكومي لهذا العائد. كانت بعض دول الخليج محظوظة لأنها استفادت من النافذة المالية التي أتاحت لها وشيدت بنى تحتية متينة ومعمره، لكن دولاً أخرى أصيبت بالصدمة.

مع التكشف، بل ومن قبله أيضا، بدأ تسريح العمالة الوافدة. الحديث عن توطين الوظائف مستمر منذ أكثر من عقد. الافتراض القائم أنك تستطيع أن تقلل من الإنفاق الحكومي ومن التحويلات الخارجية ومن الهدر عبر استبدال العمالة الوافدة بعمالة مواطنة.

بعض الدول لن تتمكن من هذا المطلق لأسباب ديموغرافية بحتة، فمن الصعب عليها توفير الملايين من الأيدي العاملة من البدائل وهي ساكنها ما تحت الملايين نسمة. البعض الآخر يراهن على تدريب مواطنيه وتحويل وجهة تطلعاتهم العملية نحو أعمال غير مكتنية. لا يزال من المبكر الحكم إن كان استبدال بائعات واقدات في محلات العطور في الرياض باخريات من بنات البلد هو الحل لمشاكل البلد الاقتصادية.

ثم هناك مشكلة الرواتب للمواطنين. الحكومات الخليجية منحت مواطنيها رواتب عالية بالعموم، خصوصا عندما كانت الوفرة المالية في ذروتها، وتجد نفسها اليوم أمام استحقاقات الاستمرار بنفس المعدلات. فتمت رواتب في منطقة الخليج عالية بكل المعايير العالمية. من النادر أن تجد موظفا في أوروبا يزيد راتبه على ما يعادل 10 آلاف دولار لا يدفع منها ضريبة. من المألوف جدا أن ترى موظفا مواطنا في الخليج يراتب أكثر من 15 ألف دولار يدفع عنها أي ضرائب حقيقية. الميزانيات الحالية

شبهتها البيئية تدار بمحرك أقل من 1500 سم مكعب.

ما آخر حدوث المشكلة هو نمو الطلب في الصين والهند والكثير من الدول التي تعرفت على نهم الطاقة متاخرة. لكنها دول فقيرة بالأصل، وتعودت على القليل ولم تتمكن من تعويض الفارق في الاستهلاك الغربي. واستمرت مراوحة الاستهلاك حول نفس المعدل، مع زيادة في الإنتاج من النفط القديم ومن النفوط الصخرية المستحدثة. النتيجة كانت تراجع الأسعار، وفي بعض الأحيان تهاويناها. العالم في هذه الفترة أيضا تعرف على الغاز الطبيعي أكثر ودخلت دول منتجة له إلى السوق بقوة.

لا انتظار رحيل كورونا هو الحل ولا زيادة التكشف هو الحل ولا انتظار معجزة صعود أسعار النفط هو الحل ولا تشجيع الوافدين على المغادرة هو الحل. الأمر يحتاج إلى مراجعة شاملة وهادئة

صراعات أوبك معروفة، والخلافات داخل الكارتيل النفطي يختلط فيها السياسي مع العناد مع خروج دول بكاملها من الإنتاج لسنوات كما حدث مع العراق، ودخول ما يعادل إنتاج دول ثانية من معرض تقدمه دولة عملاقة في الإنتاج مثل السعودية. الروس دخلوا اللعبة وصار الصدام حتميا مع السعودية. الإغراق والسيطرة على الحصص والأسواق هما شكل أوبك وأوبك- التي برزت بعد دخول عدد من الدول غير الأعضاء في المنظمة بيت الطاعة.

قبل أن تمسك أوبك- بزمام الأمور جاءت الجائحة وبقية القصة معروفة. لا



من الصعب تشخيص طبيعة الأزمة الاقتصادية التي تعيشها منطقة الخليج. فثمة مؤشرات متناقضة تبرز من اقتصاداتها يصعب على المراقب تحليلها، خصوصا عندما يختلط السياسي والنفسي مع الإرقام. لا شك أن تلك العوامل مهمة ومؤثر في اقتصادات العالم، ولكن دول الخليج كانت بمنأى نسبي عنها بحكم وجود العامل الموازن المهم وهو عوائد النفط. في دول كثيرة في العالم قد تتأثر الأسواق والتجارة بصعود سياسي أو تولي حزب للحكم، أو أن يتأثر قطاع الأعمال بحكم عوامل نفسية شعبية، لكن الخليج كانت لديه مناعة عالية من هذه التقلبات. ربما إلى حدود وصولنا إلى الأزمة الحالية.

من قبل انتشار وباء كورونا، كان الخليج يعيش وضعاً اقتصادياً ضاعفا بسبب تراجع أسعار النفط. سعر برميل النفط اليوم هو ثلث ما كان عليه قبل سنوات. وصل السعر إلى حوالي 120 دولارا، ولكنه لم يستقر عند ذلك المعدل طويلا. أسعار النفط، كما لا يخفى على أحد، هي ضحية نفسها. ارتفعت فصار إنتاج النفط الصخري مربحا، واندفعت الشركات الكبرى في الاستثمار في إنتاج النفط الصخري أولا، وفي تحسين تقنيات استخراجه ثانيا.

وجاءت تقنيات تخفيض الاستهلاك لتزيد من الأزمة، إن لم ينمو الطلب كما كان متوقعا. تخيل خارطة قارة مثل أوروبا وانت تحلق فوقها ليل بالبطارية واستبدل كل لمبة نوري في عود إضاءة في الشوارع مثل السعودية. الروس ال إي دي، لتتخيل التوفير في الطاقة. القارة الأوروبية اليوم تضاء بـ10 في المئة فقط مما كانت تستهلكه شوارعها. بقية الحسبة معروفة في كل إضاءة منزلية وشاشة تلفزيون ومحرك سيارة يعمل بكفاءة عالية. صرت أوبك تجد سيارة مرسيدس كانت تدار بمحرك بحجم 3000 سم مكعب، أصبحت

عبد الناصر المُختلف عليه مصريا وعربيا

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها

أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدرء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة العقبوي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk

فالتبقيات الفقيرة والوسطى تجدها غالبا مؤيدة لعبد الناصر، والعكس قد يكون صحيحا.

يرتبط الحنين لعصره في مصر بالانحيازات الاجتماعية أكثر من التوجهات السياسية. ففي الأولى حقق إنجازات عادت بالفائدة على قطاعات كبيرة، بينما تسبب في تدهور كبير بالنسبة للثانية. وتظل بصماته في الأولى مصدر شعبية، ولا يجد البعض من النخب الذين أسبروا من ممارساته السياسية غضاضة في مدح إجراءاته الاجتماعية.

يدور نقاش في مصر حول درجة التشابه بين الرئيس الحالي عبدالفتاح السيسي وبين عبدالناصر أستمد بريته من تراكم التحديات الإقليمية. وبصرف النظر عن التشابه والاختلاف لكل عصر تطورات وطوقسه وحساباته ورجاله. ومن الصعوبة تطبيقها على عصر آخر، فقط يمكن استلهام قسما منها وتطويرها بما يناسب المستجدات.

يبقى عبدالناصر مختلفا عليه مصريا وعربيا، فقد كان صاحب مشروع طموح، وواجه مطبات عسيرة في الداخل والخارج، وإخفاقات ونجاحات، وظهر خلال فترة من أكثر الفترات رواجاً بالزعماء الكبار، تجاوزت تصورات الأبعاد المحلية التقليدية، ما جعله محط أنظار قوى عديدة، ومن البديهي أن يستمر الاختلاف عليه.

لن نتوقف التقديرات حول الرجل وتجربته، لأنه لم يكن قائدا عاديا، فهو صاحب كاريزما سياسية، وأجاد مخاطبة الجماهير ودغدغ مشاعرهم، الأمر الذي يأخذ عليه خصومه، حيث استغل شخصيته في التأثير على عواطف الناس أكثر من عقولهم. وهذه واحدة من الأسباب التي تفسر تعلق فئات كبيرة به ولو لم تكن خلال فترة حكمه.

وهي أيضا من مبررات الهجوم عليه، فقد تحول الرجل إلى ما يشبه المخدر، واستند عليه البسطاء في التعويل عليه لتحقيق أحلامهم، ثم تركهم نهبا للخيال وقضى نحبه.

عبد الناصر يبقى مختلفا عليه مصريا وعربيا فقد كان صاحب مشروع طموح واجه مطبات عسيرة في الداخل والخارج وظهر خلال فترة من أكثر الفترات رواجاً بالزعماء الكبار، فتصوراته تجاوزت الأبعاد المحلية

الأجندات السياسية، غير أن النقاش الأخير بين الجزائرية والمصري أكد أن المسألة مليئة بالأحكام القطعية المسبقة، فكل طرف عمد إلى توظيف انتباعاته في الهجوم أو الدفاع، ولم يقدم ما يثبت صواب رؤيته.

يمكن هنا أوجه الخلل في التقويم، حيث تلعب الثقافة والتكوين والفكري والسياسي دورا مهما في تحديد الموقف.

يمكن أن يكون الاختلاف سمة حضارية بارزة، وينطوي على رد اعتبار للبعض، إذا كان الحوار شفافا وصادقا وخاليا من



العالمية، والمؤامرات الدولية، ولم يحملوا الرجل نقیصة واحدة.

تستغل هذه الطريقة خصومه، ما يقود إلى وضع جميع الكوارث التي مرت بها المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج على كاهله، ونادرا ما تجد تقبيما موضوعيا، فإما مع أو ضد. في الحالتين تنوه المواقف والمعالم والحقائق، ويصبح عبد الناصر هو الشخص الأكثر إثارة للجدل لمصريا وعربيا حتى الآن.

يجد الخلاف طريقه عادة مع الزعماء الذين تركوا بصمات في حياة شعوبهم والمنطقة والعالم، ويتم استدعاء القائد أو الملمه عندما تمر دولته بانتكاسات، فيصبح الحنين إلى الماضي، أو النوستالجيا، وسيلة للهروب من مرارات الواقع. ويبدو فيه البعض متفلسا إسقاطات سياسية معينة، بينما في حالة عبدالناصر تنوه الدوافع والأسباب.

يمكن أن يكون الاختلاف سمة حضارية بارزة، وينطوي على رد اعتبار للبعض، إذا كان الحوار شفافا وصادقا وخاليا من

حضر اسم عبدالناصر احتدم الخلاف. كشفت هذه الواقعة البسيطة جانبا مما يكتنف النخب العربية من رؤى متضامنة لعصر عبدالناصر. ففي الجزائر نفسها هناك من يرونه زعيما قوميا بامتياز وله شعبية حاضرة في الوجدان العام، ولعب دورا مهما في مقاومة القوى الاستعمارية، وفي مصر ثمة من يرونه "شيطانا" تسببت تصرفاته في نكسات على مستويات متعددة، أو "ملاكا" يريد العزة والكرامة والنصر لأتمته.

رايت نماذج مختلفة لهذه النوعية من النقاشات تتصاعد فيها التجاذبات لمستوى غير عقلاني، وهي صفة عربية تتوافر في حوارات كثيرة حول الزعماء السابقين، ويتم استحضارهم كدليل على بؤس الحاضر أكثر من التفاخر بالماضي، كما في العراق بالنسبة لصدام حسين، والعقيد عمر القذافي في ليبيا، والحبيب بورقيبة في تونس.

تتوقف نتيجة التقويم على طبيعة الموقف السياسي الذي يتبناه الشخص المدافع أو المهاجم، ويبدو الانقسام مثيرا في النقاشات التي تدور حول أداء عبدالناصر، وبأخذ اتجاهها ساخنا، مع أن بعض الكتابات المنصفة رصدت تجربته بما لها وما عليها، في إطار الأجواء والتحديات التي كانت السائدة في حينه، فليس من المنطقي التقويم بناء على المستجدات

الراهنة، وغير مقبول إعادة تكرار سياسات سابقة في الزمن الحالي. أسهم من يسمون في مصر بـ"مجانين" عبدالناصر، وهم الذين يدافعون عنه بقطة لم يكسب أو بالباطل ويرتدون ثوبه السياسي، في خلق انتباعات سلبية عنه، لأنهم نزوه عن كل الأخطاء التي ارتكبت في عهده، ورفعوه إلى عنان السموات وأرجعوا نكساته إلى الإمبريالية



يمر اليوم، الإثنين، نصف قرن بالانتماء والكمال على رحيل الرئيس المصري الأسبق جمال عبدالناصر، ولا يزال محل اختلاف بين النخب العربية، وتجربته موضع أخذ ورد كبيرين. كلما زادت الضغوط على المنطقة يتذكر كثيرون سلبياته وإيجابيه، وفاق الاهتمام به غيره من الساسة لحجم الجباين الذي يعترى تقويم توجهاته وممارساته.

كنت شاهدا على حوار افتراضي جرى قبل أيام قليلة بين منقفة جزائرية انتقدت بحدة تصرفات عبدالناصر، ورايت أن تأثيراته السلبية لم تنحصر داخل مصر، بل امتدت إلى بلدها، وقالت إن الرئيس هوراي بومدين اقتدى به في مسألة الإصلاح الزراعي، واعتبرتها عملية كارثية على بلدها، وأتهمت ناصر صراحة بأنه أمر بقتل كل قادة الثورة الأمازيغ من أجل انتصار العروبة.

لم تعجب النتيجة التي ذهبت إليها الأكاديمية الجزائرية كاتبا مصريا مرموقا لا ينكر انحياز عبدالناصر، انبرى مدافعا عن تصوراته الزراعية والاجتماعية وتوجهاته السياسية، وعلاقته القوية بالثورة الجزائرية، واحترامه لكل الأطياف الوطنية.

احتدم النقاش بين الجانبين وبلغ حد استخدام توصيفات شوفينية، وكل طرف دافع بشدة عن موقفه ووجد من يؤيده في منطقته الشعبي، وتلاشى صوت الحكمة في خضم الترافيق الرنان بالعبارات، ولم يتبين كثيرون أوجه اختلاف أخذ بعدا يتجاوز أصل الكتابة، وتشعب بشكل متطور إلى تقييم التجربة من خلال كلمات عابرة.

توقف الحوار عند نقطة لم يكسب فيها أي من الفريقين المباراة السياسية، وقبل أن تصل إلى محطاتها النهائية وجه كل طرف انتقادات قاسية للآخر، ولم يبد كلاهما رغبة في الهدوء والرشاد والتفصيح، فهو نقاش جرى وسوف يجري كثيرا بين النخب العربية، فكلما